الفصل الحادي والعشرون

صمود

لا يمنع المرء من التقدم في الحياة وخوض الجديد في الحياة إلا لجام الخوف، يقيد فكره ويحصر حركته في حدود المألوف الآمن، ويسوقه إلى ما اعتاده، ليجنبه صراعات النفس واضطرابها، والنجاة من الغرق في بحرها الهائج، دون أن يدرك بأن المصاعب تولد قوة النفس وثباتها، لذا فلا يفكه هذا اللجام إلا يدين ذات إرادة قوية مستعدة للتضحية في سبيل ما تراه سيحقق لها رؤية جديدة وخطوة كبرى في الحياة.

هكذا كانت حالة ضياء في المساء حين جلست على الكرسي ترقب شادي بصمت وتساعده في تناول عشاءه كلما احتاج إليها، قطعت له رغيف الخبز ليغمصه في طبق حساء الخضر الذي أعدته له بنفسها وقطعت له تفاحة، وبقيت تراقبه، كان جالساً على سريره مسنداً ظهره إلى الوسادة ومدثراً طرفه السفلي الممدد بالغطاء، وأمامه طاولة صغيرة المتحركة والمخصصة للمرضى، بينما جلست مها على الكرسي الآخر والمصحف بين يديها تقرأ بعضا من آيات الله. رجفة الخوف ظلت تعتمل بقلبها رغم أنها تحاول صرفها بالاهتمام به، كانت تخشى ردة فعله، كيف تفاتحه بأمر عملها، هل سيغضب؟ هل سيتقبل قرارها أم سيتألم لقبولها عرض طارق واتخاذها خطوة دون علمه واستشارته؟

ما أقدمت عليه كانت تراه ضرورياً لأجلهم جميعاً، قيود الخوف منعتها من إخباره منذ عودتها من البيت، شعرت بالقلق يطرق قلبها بعنف، لا بد أن تخبره، قررت أن تصبر وتنتظر حتى ينهي وجبته، إلا أن الكتمان انعكس عليها، فاضطربت أنفاسها وضربات قلبها، وتراقصت أصابعها على ركبتيها على نحو ملفت دون أن تنتبه،؛ بل أنها لم تكن مستقرة في جلستها، تجلس على طرف الكرسي قليلاً لتعود للوراء بعدها وتعدل وضعها ثم تعود لوضعها السابق، الشرود وسلطان التوتر كانا مستحكمين عليها.

التفت إليها حين شعر بها، وسألها قلقاً:

-ما بك يا ضياء؟ لِمَ أنتِ قلقة؟

انتبهت من شرودها، قالت وهي تهز يدها:

-لا شيء، لا تقلق، أكمل طعامك.

أبعد الطاولة بيمناه هو يقول:

-لقد انتهيت والحمد الله، سلمت يداك.

أسرعت تنهض لتبعدها عنه وترفع الطبق منها وتضعها على الدولاب الصغير قربه وتناوله كأس ماء، بينما مسح بمنديل بقايا ما علق من طعام على فمه وشاربه ولحيته وتناول كأس الماء منها، ولما فرغ، التفت إليها، وقال باسماً:

- أخبريني مالذي يشغل بالك يا أختي؟

ظلت واقفة صامتة، أشار لها بالجلوس، ففعلت حين أنهت والدتها تلاوتها، ثم قالت بعد تردد وتلعثم:

-كنتُ... أريد مساعدتك يا أخي، فطلبتُ من سحر أن تبحث لي عن عمل حتى وجدته.

وتفاجأت مها بينما صُعق لقولها، فعقد حاجبيه وصاح غاضباً:

-تبحثين عن عمل!! لِمَ؟ أمورنا لا تزال على خير ما يرام، لِمَ تريدين تدمير مستقبلك بالتفكير في أمور سأجد لها حلاً بطريقتي؟

ارتعبت لغضبه وارتجفت، ثم قالت في ارتباك:

-أية طريقة يا أخي وأنت تستدين مرة من السيد عبد الكريم، ومرة من صاحب الورشة وربما ثالثة من مالك السوق المركزي؟ إلى متى ستجعل الديون تلقى على كاهلك دون أن أساعدك بشيء وأخفف عنك؟ إلى متى سيصبر علينا الناس حتى تتعافى إصابتك؟ لا تضمن ذلك يا أخي.

ازداد غضبه وهو يقول في حدة:

-وهل طلبتُ منكِ شيئاً؟ أنا المسؤول عنكما ومن سيقرر ما يتوجب فعله، ولا أريدك أن تفكري في عمل أو أي شيء آخر سوى مستقبلك، لِمَ تريـ...

وقطع كلمته حين أحس بألم إصابة كتفه فوضع يده اليمنى عليها وزم شفتيه محاولاً احتمال ألمه، أسرعتا تقتربان منه أكثر، قالت ضياء في قلق:

-أخي، هل أنت بخير؟

قالت مها في خوف وهي تربت على ظهره:

-هدء من روع غضبك يا بني، سنجد حلاً بهدوء وليس بالغضب، لا زلت متعباً.

رفع بصره لضياء، وقال بلهجة خالطها الحزن:

-ضحيتُ بالكثير لأجدك تتقدمين يا أختي لا أن تتأخرين عن أقرانك، انسي أمر العمل وستتدبر أمورنا بإذن الله.

طفر الدمع في عينيها وهي تمسك بيده وتقول بألم:

-ولأنك ضحيت بالكثير، ألا تريدني أن أضحي لأجلك وأقدم لك شيئاً وقت شدتك؟ لِم لا تريدني أن أساعدك وأنا أختك وأنت أخي ولا سند لنا في هذه الحياة سوى والدتنا حفظها الله، لِم لا تريدني أن أشاطرك همك وأخفف ما يعتمل في صدرك من هم أستشعره كلما تطلعت في وجهك؟ لِم تريدني أن أكون أنانية.

رفع حاجبيه في ذهول لكلماتها، بينما تأثرت مها بما قالته، فابتسمت وقالت:

-حفظكما الله يا ولديَّ الحبيبين.

أسبل جفنيه وتنهد بعمق مبدداً غضبه كلياً وقد بدا مقتنعاً بقولها رغم ألمه من قرارها في أعماقه، بينما مسحت ضياء دموعها، وقالت مبتسمة لتطمئنه:

-ثم أن العمل لن يمنعني من مواصلة دراستي.

نظر إليها وسألها بحزم:

- أخبريني، ما طبيعته؟

-معلمة.

بدا الاستغراب على وجهيهما، سألتها مها في دهشة:

-أين؟! أنتِ لا تملكين شهادة تربية وتعليم.

-ليس بمكان حكومي أو خاص، وإنما طفلة ستأتي لمنزلنا لأعلمها مقابل أجر معلمة.

سأل في اهتمام:

-من هي؟

-ابنة السيد عبد الكريم.

قالت مها:

-الطفلة التي أتت معه في فجر ذلك اليوم؟

-نعم.

عادت تسأل في حيرة:

-ترى، لِم وقع الاختيار عليك لتعلميها والمدينة بها الكثير من المعلمات؟

أخذت تشرح لهما حال رُبا كما روى لها طارق، وتروي لهما ما كان من تصرفها بالقاعة، ثم قالت مها وهي تهز رأسها:

-يبدو بأنها أعيت أهلها.

-صحيح، وعندما علم طارق بأني أبحث عن عرض علي ذلك.

امتعض وجه شادي وبدا متضايقاً وهو يقول:

-طارق هذا لا يضمر أي خير، ماذا ينوي من عرضه هذا؟ إنه بلا شك لا ينوي مساعدتك.

ردت عليه في حزم:

-لا تقلق يا أخي، فقد اشترطتُ أن تأتي أخته لمنزلنا وقد وافق.

-متى سيأتون؟

-عندما ألقاه غداً بالكلية سيخبرني.

تنهد ثم أردف:

-حسناً، يجب أن تكون أمي معك وقت زيارتهم.

هزت رأسها مؤيدة، وقالت:

-لا تشغل بالك، ستكون كل الأمور بخير.

ابتسم لها وهو يقول:

-أسأل الله أن يكون كذلك.

لم تكن ضياء وحدها غارقة في بحر القلق والتفكير؛ بل كان طارق مثلها تماماً؛ لم يدرِ كيف يبتدىء حديثه حين كان جالساً على الأرض حول سفرة العشاء في غرفة المعيشة الواسعة مع بقية أفراد عائلته، وهو ينقل بصره بين والده الذي يجلس قربه وبين والدته التي تجلس أمامه على مقربة من رُبا وتوزع أصناف الطعام عليهم؛ أرغفة الخبز وأطباق السلطة واللحم والمفروم والجبن وأكواب شاي الحليب الموزعة عليهم، أخذه الشرود بدوره فيما

أقدم عليه ووعد ضياء به عن الاهتمام بتناول طعامه؛ هل سيؤيد والده ما فعله ويمنح ضياء أجرة معلمة رغم أنها لا تمتلك مؤهلاً بهذا المجال؟ وهل ستوافق والدته هل اصطحاب أخته لمنزل جده القديم هو يعلم بأنها تشعر بالنفر منه منذ كان صغيراً؟ هل ستجري الأمور وفق ما يريد؟

لاحظت رُبا نظراته وشروده وهي تتناول فطيرة أعدتها لها أمها، قضمت قضمة منها ثم قالت لوالدها بحماس كأنما تذكرت أمراً:

-لقد رأيت صف طارق يا أبي، إنه جميل جداً.

انتبه من شروده، وقال في ضيق:

-ليتك لم تأتِ.

قال عبد الكريم مبتسماً:

-إنها المرة العاشرة التي تخبريني فيها بهذا، ثم أني من أوصلك إلى كليته.

ضحكت

-حقاً!! لم أنتبه، لقد أبهرني كثيراً.

-كذلك مدرستك التي لا تريدين الذهاب إليها، إنها جميلة أيضاً.

امتعض وجهها وهي تبتلع لقمتها، وتقول في ضيق:

-المعلمة تريد سجني في الصف، كما أنه ليس جميلاً كصف طارق.

قالت عائشة بعد أن أطلقت تنهيدة قوية:

-على ذكر المدرسة، لقد فشلت كل محاولتي يا عبد الكريم، لم تقبل إحداهن بتعليم رُبا، ماذا أفعل؟ لقد تعبت، ولم أستطع تغيير شيء في سلوكها، جد حلاً.

ألقى نظرة طويلة عليها وهو يقول في نفسه يائساً:

-ليتكِ تجدين وقتاً تتفرغين فيه لابنتك بدل زيارات رفيقاتك مرات وأخرى للأسواق، هداك الله يا عائشة فكرك مشغول بأمور أخرى، زينتك وشراء أغلى الثياب وحسب.

قرأت في عينيه كلاماً؛ لكنه آثر الصمت، فقالت له:

-ما بك؟

رد عليها وهو يتناول كوب الشاي:

-حاولي معها بنفسك.

ردت في استياء:

-حاولت ولم أنجح.

-استمري معها لا أن تملي بسرعة، المعلمات لسن الحل المطلق تعليمها يحتاج لصبر.

نظرت إليها قالت في ضيق:

-أنا لا أدري كيف أغير تفكيرها وأقلل حركتها الكثيرة هذه، ربما نحن في حاجة لعرضها على أخصائية اجتماعية، علها تنصحنا بشيء.

هنا، وجدها طارق فرصته التي سنحت فأسرع يقول مهدئاً الجدال الذي دار:

-لقد وجدتُ حلاً لمشكلة رُبا.

التفت والداه إليه في اهتمام، بينما توقفت رُبا عن الأكل في انتباه وهي تتصور بأن سجناً كبيراً ستوضع فيه لتتعلم، ارتعبت وهي تقول صارخة وبتعنت:

-لن أذهب للمدرسة، لا أحبها.

ابتسم ابتسامة مائلة، وقال بسخرية:

-ستذهبين إليها مهما طال الزمن.

قالت عائشة في نفاذ صبر:

-هلا أخبرتني ما هو الحل؟

اعتدل وقال بحزم:

-وجدتُ معلمة قد قبلت بتعليمها.

-من هي؟

-إنها ضياء خالد، زميلتي بالكلية.

بدا الاستغراب على وجه والديه، قال عبد الكريم:

-شقيقة شادي؟!

-نعم هي، إنها تدرس بنفس دفعتي، عندما أخبرتها بمشكلة رُبا قبلت بتدريسها.

عقد حاجبيه وقال بحدة:

-ولِم تريد ضياء تعليم رُبا؟ ما الذي تريده من ذلك؟ ألأنها زميلتك تريد مساعدتك، أم أن هنالك أمراً آخر؟

بدا التردد قليلاً على وجهه، إلا إنه استجمع شجاعته ليقول:

-كانت تبحث عن عمل، ولما عرفتُ من أمي بأن إحداهن لم تقبل بتعليم رُبا أخبرتها بذلك ووافقت.

بدا الحزن على وجه عبد الكريم؛ ضياء تفكر بحال أهلها وبدأت تبحث عن عمل لتستطيع سد الفراغ الذي سيتركه شقيقها وتسدد ما عليهم؛ لكنه احتار في تصرف طارق، لِم يقدم لها عملاً بعد إهانته لأخيها خاصة؟ كما انزعج لكونها زميله له واستخدمها لتعلم أخته، وفي الوقت ذاته شعر ببعض الاطمئنان أن يسر لها عملاً سيناسبها وتستمر في دراستها، سألت عائشة:

-وهل أنت واثق من قدرتها على تعليم رُبا؟

نظر إليها وقال:

-إنها فتاة ذكية من بين كل الطالبات، وأعتقد بأنها لن تبدي استعدادها إلا إذا كان لديها القدرة على ذلك.

عاد عبد الكريم يسأله:

-وكم أخبرتها بأنك ستمنحها؟

-أجرة معلمة كاملة إن نجحت في ذلك.

قالت عائشة بعصبية:

-نعم!! أجرة معلمة وهي ليست مختصة ولا حتى معلمة ذات خبرة؟ ثم كيف ستتعامل مع هذه المشاكسة التي لا تستقر بمكان؟

-أمي، لن نخسر شيئاً، إن لم تنجح لن ندفع شيئاً وسنبحث عن غيرها.

قال عبد الكريم وهو ينهض:

-لا مانع لدي، أنا موافق.

فابتسم طارق في سرور، بينما قالت عائشة في انزعاج:

-لحظة!! لا تقل لي بأن علي أخذ رُبا إلى منزلها؟

قال طارق:

-مثلها مثل أية معلمة سابقة يا أمي، ستأخذين رُبا إليها.

بدا النفور على وجهها وهي تقول:

-يا إلهي، لا أحب منزل جد والدك القديم أبداً، إنه ضيق ويثير اشمئزازي.

عقد عبد الكريم حاجبيه وقال في حزم:

-ستأخذين رُبا إليها لتعرفي الفتاة بابنتك وطبيعة ما تريدين أن تتعلمه، كما أنك ستتعرفين عليها وتعرفين هل ستنجح في مهمتها أم لا؟

زفرت عائشة في ضيق دون أن تبدي اقتناعها بقوله، بينما التفت لرُبا وقال:

-كوني فتاة مطيعة يا ابنتي.

هزت رأسها وقالت:

-سأفعل.

شعر طارق بالسرور لنتيجة الحوار وهو يقول:

-اتفقنا، سأخبرها بأنك ستوافينها عصر الغد إذن.

لم ترد عائشة بشيء، وصمتت ولما رأت عبد الكريم يتجه للمطبخ ليغسل يديه أسرعت تلحق به وتستوقفه عند بابه لتنفرد به، وتقول في رجاء:

-لا أستطيع الذهاب لذلك المنزل يا عبد الكريم، دع...

قطعت عبارتها حين قال في حزم:

-لا تتكبري بمجرد غناك، أنا لا ألوم طارق وأخته على ذلك وأنتِ بهذا الشكل.

-أرجوك.

هز يده في انفعال وهو يقول محاولاً إقناعها:

-هي زيارة واحدة ستختبرين فيها قدرة الفتاة، زيارة واحدة فقط، وبعدها سنرى ما سنفعله إن لم يعجبك الوضع.

لم تجد كلمات ترد بها عليه، فصمتت وهي تهز رأسها دلالة الموافقة، بينما تابع قائلاً:

-ثم، إياكِ أن تجرحي الفتاة بكلمة، لا أنتِ ولا ابنتك، ألجمي لسانها السليط.

عادت تهز رأسها إيجاباً، وقالت في انزعاج:

-حاضر.

تطلع إليها وهي تعود لغرفة المعيشة، تجر قدميها جراً في يأس وخيبة أمل، تنهد في يأس حين فهم انزعاجها وعدم اقتناعها، ثم تأمل من مكانه وجه طارق الساخر الذي كان يتحدث لأخته وهي على وشك إنهاء فطيرتها، وهو يقول في نفسه حائراً:

-هل تنوي مساعدة ضياء حقاً وأنت من أهان أخاها؟!

ثم حول بصره لرُبا وهو يقول:

-ولن تسلم من أذية هذه مهما نصحتها، أتمنى أن تتمكن عائشة من إسكاتها حينها على الأقل: بل أتمنى ألا يصدر من الاثنتين شيء.

وجاء عصر اليوم المنتظر، ، لم يكن عبد الكريم موجوداً في المنزل حينها، لذا فقد كلف طارق بإيصالها فجلس في انتظارهما بصالة المنزل، ثم أقبلتا عليه بكامل أناقتهما؛ ربا بفستانها الوردي ذو أكمام قصيرة أطرافه البيضاء مكرمشة ومزينة بالتطريز، شعرها البني الطويل منسدل خلفها تألق بطوق أبيض بدا كالتاج على رأسها الجميل، كانت تخرج من غرفتها متباهية بأناقتها، أما عائشة فقد ارتدت عباءتها الفاخرة، زينت وجهها مساحيق التجميل، وكأنها ذاهبة لبهجة عرس، الشيء الوحيد المتناقض عن ذلك هو عبوسها الذي كان يفسد زينتها، ولما أقبلت عليه أسدلت نقابها وتشير له بالنهوض ليغادروا. ضحك في أعماقه وهو يقول في نفسه ساخراً:

-إلى أين تظنان نفسيكما ذاهبتين؟ إنه منزل أشبه بالقبر!!

كتم انفعالات نفسه وتجاهل انزعاج أمه وأطاعها ليركبوا السيارة ويغادروا حيهم، فما يهمه من كل هذا هو تحقيق هدفه، وأتمنى في أعماقه أن تسير الأمور وفق ما يريد. انطلقت السيارة بهم صوب حي السلام مروراً بشارع الستين المطل على ساحل البحر، وصولاً إلى الكورنيش، منه إلى الشوارع الفرعية التي كانت متاحاً له المرور بسيارته عبرها، لازم الضيق وجه عائشة وهي تتخيل كيف ستقضي وقت الزيارة مع حالتها من الضيق والاشمئزاز من المنزل، قالت في نفسها:

-لم أحب زيارة هذا الحي القذر ولا حتى ذلك المنزل ولو لحظة واحدة، فكيف سأحتمل البقاء فيه حتى ساعة؟

ثم أوقف السيارة بالشارع الذي يطله عليه منزل شادي، ولما نزلتا، قال لهن:

-سأعود إليكن بعد صلاة المغرب.

ردت في انفعال:

-نعم!! إنها الساعة الرابعة والنصف، أتريديني أن أبقى ساعتين؟!

-حتى تنهين ما تريدين براحة.

-بل قبيل الآذان تعود إلينا، لن أتأخر.

هز رأسه موافقاً وغادر، بينما ظلت ملامح الضيق تملأ قسمات وجهها، هي مجبرة لأجل ابنتها، أمسكت بيدها واتجهتا نحو المنزل ومشيتا بضع خطوات من الشارع وصولاً إلى زقاق بين المنازل وتصلا للمنزل المقصود، كانت ترفع طرف عباءتها باشمئزاز، ثم قرعت الباب

وانتظرت لتفتح لها ضياء وترحب بهما في ابتسامة، وأشارت لهما بالدخول وأن يتبعاها نحو الأعلى، كانت ضياء ترتدي حجاباً وثوباً فضفضاً، لم تتأملها عائشة كثيراً فانشغالها بتأمل قدم المكان كان يستحوذ فكرها ويشتت انتباهها، مروا عبر الممر الضيق وصولاً إلى درجات العمارة، كانت تتحاشى أن تلامس عباءتها الفاخرة جدران الممر الطينية وتشعر بالرعب للظلمة الشبة مطبقة عليه وكأنها تدخل كهفاً لضيق الممر وظلمته، وكذلك الدور الأول كان مظلما إلا من إضاءة قليلة بموضع الدرجات، أحست ضياء بنفورها ؛ لكنها تجاهلت ذلك وقادتهما إلى الدور الثاني حيث شقتهما، وقفت عند جانب الباب وأشارت لهمن بدخول حجرة الضيوف، هنا انتبهت لملامح وجهها فشهقت في فزع وعلى نحو لا إرادي، وتراجعت للوراء قليلاً ثم تمالكت نفسها وسألتها في توتر:

-أنتِ... زميلة طارق؟!

لم ترتبك لردة فعلها أو تنزعج؛ بل ثبتت وقالت لها وهي تهز رأسها في حزم:

-نعم

-أنت إذاً المعلمة التي...

فهزت رأسها مرة أخرى مؤيدة، ترددت عائشة وهي تفكر:

-ملامحها مخيفة لا تدل على أنها قد تفيد ابنتي؛ آخ يا طارق لا أدري كيف أقنعتني؟ ماذا أفعل؟ لا أشعر بالأمان لا لها ولا لهذا المكان الموحش.

قطعت تفكيرها حين أطلت مها من غرفة النوم بثوب عادي لكنه جميل مسدلة حجابا على رأسها أيضاً وهي تقول مبتسمة:

-أهلا بكما، تفضلي يا سيدتي.

دخلت عائشة وربا حجرة الضيوف وجلستا وهي ضجرة من تواضعها الجم والأهم جدرانها الطينية التي خشت أن تلوث عباءتها، بينما قالت رُبا بعفوية والفضول يأمل عينيها:

-هل هذا بيت؟

كأنها تدخل بيتاً كهذا لأول مرة في حياتها، بدت الاستفهامات على وجه مها، بينما ابتسمت عائشة في سخرية، وهي تقول محاولة تبرير تصرف رُبا:

-اعذراها، رُبا لم تعتد زيارة البيوت الشعبية منذ أن وُلدت، واعتادت منزلها الواسع وكذلك منازل أقرباءها ورفيقاتها.

بدا الضيق على وجه مها وأدركت بأن شخصيتها لا تبتعدان كثيراً عن شخصية طارق، أما ضياء فقد تجاهلت قولها ولم ترد أن تخسر من البداية، وقالت مبتسمة لرُبا:

-البيت هو مكان يأوي إليه الناس مهما كان شكله، البيوت تختلف يا عزيزتي.

هزت رأسها بصمت وعيناها لا تزال تتأملان ما حولها، ثم التفتت إلى عائشة وقالت:

-هلا شرحتي لي ما المطلوب مني لأجل ابنتك؟

أعجبت بقولها وهدوءها رغم قول رُبا فقد توقعت منها أن تنزعج إلا أنها لمحت صبرها، فأجابتها باهتمام:

-ببساطة، إذا استطعت أن تعلميها الحروف والأرقام وبعض الكلمات باللغتين العربية والانجليزية أكون لك شاكرة، إنها لم تعيها رغم كل جهودنا معها.

هزت رأسها ثم نهضت ومدت يدها لرُبا وهي تقول في مرح:

-تعالي معي إلى غرفتي يا رُبا، سنتحدث قليلاً، لندع والدتينا مفرديهما ريثما ننتهي.

فنهضت معها وأخرجتها لتدخلها الغرفة الأخرى وعيناها لا تزالان تتأملان كل ما حولها، كانت مندهشة من بساطة الأشياء فيها مقارنة بمنزلها، قالت لضياء:

-منزلكم غريب حقا يا...

فابتسمت لها وقالت:

-اسمي ضياء، وقد أخبرتك أن المنازل ليست متشابهة.

- هكذا!!

أسرعت تخرج مذكرتها من حقيبتها وتناولها قلما وهي تقول:

-اكتبي لي ما تعرفين من الحروف يا رُبا.

حكت رأسها وكأنها ثم تناولت القلم من ضياء وبدأت تكتب، فتفاجأت بما دونته، لقد رسمت بطة بدل من الحروف، فبررت موقفها ساخرة:

-لا أحب الحروف؛ لكني أحب الرسم كثيراً.

شعرت ضياء ببعض الضيق في أعماقها لعدم انصياعها، إلا أنها كتمته وابتسمت لها وهي تقول:

- يا سلام يا رُبا، رسمك بديع جداً، أحسنتِ.

دُهشت ربا لقولها، وشعرت كأن ما قامت به يعد إنجازاً كبيراً، فابتسمت في سرور، وقالت:

- أشكرك كثيراً، لم يسبق أن امتدح أحدهم رسمي.

اتسعت ابتسامتها و هي تقول:

-هل تعلمين أيضاً بأنك قد كتبتي حرفاً بهذه الرسمة الجميلة؟

- حقا ؟!

تساءلت وهي تميل برأسها في حيرة وتتأمل رسمتها، أسرعت تحول لها رسمة البطة إلى حرف ياء وقالت لها:

- هذا حرف الياء، وهو موجود في كلمة يد.

- مذهل..

عادت تلتقط القلم سيارة، خفة يدها واهتمامها ببعض تفاصيل ما ترسم أذهل ضياء، فكانت النتيجة لوحة مذهلة جميلة فأعجبت بها ضياء، ولما انتهت قالت لضياء:

-وهذه السيارة، إلى أي حرف ستصبح؟

نظرت ضياء للوحتها وقالت:

-حرف الياء أيضاً، لنفتح غطاء السيارة الأمامي للحظة لنصلحها.

و رسمت ضياء غطاء السيارة مرفوعاً محولة إياها إلى حرف ياء كذلك، صفقت رُبا في مرح، وابتسمت ضياء حين استطاعت أن تعلمها شيئا، وأدركت بأنها تحب اللعب الممزوج

بالرسم، فأرادت أن تستمر معها بنفس الطريقة وتطلب منها رسم شيء أخر، إلا أنها نهضت مسرعة وعادت نحو النافذة وأطلت منها وهي تقول:

-أريد أن أرى البحر من هنا، هل يمكنني ذلك؟

تفاجأت من انتقالها السريع لأمر آخر، وأجابتها وهي تنهض:

-لا يمكنك ذلك، أمامنا عدة مباني تحجبه عنا.

زفرت في ضيق وقالت:

-أريد اللعب.

ردت عليها محاولة إعادتها لمكانها:

-لم تمض سوى خمس دقائق، لم نفعل شيئاً بعد لنلعب يا صغيرتي.

لكنها لم تستمع لها وخرجت من الغرفة سريعاً دون أن تنتظر حديثاً، معتزمة الخروج من العمارة، إلى أن لفت انتباهها شكل المطبخ فدلفت إليه دون استئذان، استغربت شكله، لكن الموقد والدولاب الصغير الذي حوى بعض المواد المستخدمة له ووجود أدوات للطبخ دفعتها لتسأل في حيرة:

- أهذا مطبخ؟!

صمتت ضياء في ألم، أهذا ما كان يريد طارق الوصول إليه، أن تستمع لتعليقات أخته الجارحة لأتفه نواقص البيت وحاجته بسبب حالهم بعد الحرب؟! تألمت وهي تتذكر منزلها الجميل الكبير بفنائه الواسع تستقبل فيه أشعة الشمس كل صباح، تنام بغرفتها وعلى سريرها

الخاص وتضع أشياءها بخزانتها المستقلة، تعد العشاء لأهلها بمطبخه الواسع المؤثث بكل مستلزماته، تشارك صديقاتها إعداد الحلويات أحيانا، وتستقبلهم في غرفة الضيوف الجميلة ذات الأرائك الجميلة.

كادت عيناها أن تدمعا وهي تتذكر بأن ذلك المنزل صار في صفحة الذكريات فقط بعد أن علمت بتدميره تحت وطأة القصف، إلا أنها قاومت حزنها وحبست دمعتها حين رأت عينا رُبا متعلقتان بها، إن استسلمت للحزن فستنقل ضعفها إلى شقيقها طارق، قالت في نفسها في حزم:

- سأكون بمقدار هذا التحدي يا طارق.

ثم انحنت لرُبا ومسحت على رأسها وهي تقول مبتسمة:

-نعم هذا مطبخ؛ لكن مطبخ منزلنا بالمُعلا أكبر من هذا، رُبا، دعينا نعود لوالدتك.

ردت في تعنت:

- لا أريد، أريد أن أخرج.

-لا تقلقي، سنطلب الإذن منها لنخرج إلى الخارج قليلاً.

فرحت لذلك، فعادتا إلى الغرفة، وهناك طلبت ضياء من عائشة أن تحضر لها الوسائل التعليمية التي تستخدمها لأجل ابنتها فوعدتها بذلك، ثم ارتدت عباءتها وخرجت برفقتها في محاولة التأقلم معها وفهم شخصيتها لأجل المرحلة القادمة.

ومع وقت الأصيل غادرتا ضياء ووالداتها، وما كادتا تخرجان حتى قالت مها في ضيق:

-يا لها من امرأة متعجرفة، لم أرتح لها أبداً.

ردت عليها ضياء في ضيق مماثل:

-كلهم هكذا، طارق وأخته وأمه، أعان الله السيد عبد الكريم عليهم.

- وأعان الناس يا ابنتي، ماذا سنفعل معهما؟ هل سنتحمل سياط لسانهما كل يوم؟

تمتمت ضياء في نفسها:

- ليس هذا وحده؛ بل طارق يحب أن يحتقر الآخرين بأقل ما يملكوه، ولهذا أرسل لي اخته لتحتل مكانه في إيذائنا.

ثم نظرت لأمها وقالت:

-أمي، لأجل أخي سأصبر وسأنتصر في هذا التحدي الذي وضعني فيه طارق بإذن الله.

تنهدت مها وقالت:

-كان الله في عوننا.

ثم سطعت في وجهها ابتسامة عريضة وهي تقول في مكر:

-الأيام بيننا، ولن تنجح في الوصول إلى مرادك أبداً، فمن تواجهها هي ضياء يا طارق.

*****